



الجزائريون المهجرون في تونس والكفاح ضد الإستعمار الفرنسي.

Algerian Expatriates in Tunisia and the Fight Against French Colonialism.

الاسم الكامل للمؤلف الثاني	علي بالهادي *
مؤسسة الانتماء (البلد)	جامعة علي ونيسي البلدية (الجزائر)
البريد الالكتروني	ea.belhadi@univ-blida2.dz البريد الالكتروني

تاريخ الاستلام: 2025/10/21 تاريخ القبول: 2025/10/26

الملخص: شكّلت الهجرة الجزائرية إلى تونس ظاهرة تاريخية محورية خلال الحقبة الاستعمارية، مجسّدةً أواصر الأخوة العميقة بين الشعبين في نضالهما المشترك ضد الاضطهاد الاستعماري الفرنسي. مثلت هذه الهجرة استجابة للمعاناة المنهجية التي خلّفها الاحتلال الفرنسي منذ عام 1830، كما شكّلت إطاراً حيويّاً للمقاومة الجماعية. من خلال دراسة دوافعها التاريخية - بما في ذلك العوامل الجغرافية والسياسية والاقتصادية - والمشاركة البطولية للجزائريين في حركات التحرير التونسية، يتتبع هذا البحث تطور النضال المشترك من المقاومة العسكرية المبكرة إلى التحالفات الاستراتيجية والمشاركة الفاعلة في الثورة المسلحة. في النتيجة، يسلط البحث الضوء على كيفية تحول اللاجئين الجزائريين إلى شركاء أساسيين في التحرير، من خلال إرساء إرث دائم لوحدة المغرب العربي والوعي المناهض للاستعمار، وكانت الإشكالية كالتالي إلى أي حدّ مثلت الهجرة الجزائرية إلى تونس خلال الحقبة الاستعمارية إطاراً تحويليّاً، انتقلت من خلاله من كونها هروباً من القمع الاستعماري إلى عاملٍ فاعل ومحوري في تشكيل حركة التحرر المشتركة، وكيف ساهمت في بلورة وعي مغربي موحد ومناهض للاستعمار؟ وكان المنهج المتبع هو المنهج التاريخي

كلمات مفتاحية: الهجرة ، الثورة ، الإستعمار ، تونس ، الجزائر ، المقاومة .

Abstract: Algerian migration to Tunisia constituted a pivotal historical phenomenon during the colonial era, embodying the deep fraternal bonds between the two peoples in their shared struggle against French colonial oppression. This migration was a response to the systematic suffering caused by the French occupation since 1830, while also forming a vital framework for collective resistance. By examining its historical motivations - including geographical, political, and economic factors - and the heroic participation of Algerians in Tunisian liberation movements, this research traces the evolution of the shared struggle from early military resistance to strategic alliances and active engagement in the armed revolution. Consequently, the study highlights how Algerian refugees transformed into essential partners in liberation by establishing a lasting legacy of Maghreb unity and anti-colonial consciousness. The central problem was: To what extent did Algerian migration to Tunisia during the colonial era represent a transformative framework, through which it contribute to crystallizing a unified Maghreb, anti-colonial consciousness? The methodology followed was the historical method.

Keywords: Migration , Revolution ,Colonialism , Tunisia ,Algeria , Resistance .

مقدمة

:
شكّلت الهجرة الجزائرية إلى تونس إحدى الظواهر البارزة في تاريخ المنطقة المغاربية خلال الحقبة الاستعمارية، حيث تجسّدت من خلالها أواصر الأخوة والتضامن بين الشعبين في مواجهة سياسات القمع والاستغلال الفرنسي. لم تكن هذه الهجرة مجرد حركة سكانية عابرة، بل كانت استجابة طبيعية لظروف تاريخية قاسية، وُلدت من رحم المعاناة التي خلفها الاحتلال الفرنسي للجزائر منذ عام 1830. كما مثّلت هذه الهجرة إطاراً حيويًا ساهم في صياغة تاريخ نضالي مشترك، تجلّى في مشاركة الجزائريين الفاعلة في المقاومة الشعبية التونسية ضد الوجود الاستعماري.

يركز هذا البحث على دراسة هذه العلاقة المتشابكة بين الهجرة والنضال من خلال مبحثين رئيسيين. **المبحث الأول** يتناول الدوافع التاريخية للهجرة الجزائرية إلى تونس، مُسلطاً الضوء على العوامل الجغرافية والبيئية التي سهّلت حركة التواصل بين البلدين، وكذا العوامل السياسية والاقتصادية التي فرضتها سياسات الاستعمار الفرنسي، من قبيل مصادرة الأراضي، والقمع الدموي، والإفقار الممنهج، مما دفع بالعديد من العائلات والقبائل الجزائرية إلى البحث عن ملاذ آمن في الأراضي التونسية.

أما **المبحث الثاني**، فيكشف عن الدور البطولي للجالية الجزائرية في المقاومة الشعبية التونسية طوال الحقبة الاستعمارية. حيث يتتبع هذا المبحث تطور أشكال النضال المشترك، بدءًا من المقاومة العسكرية المباشرة في ثورات مثل ثورة الفراشيش (1906)، مرورًا بالتحالفات الاستراتيجية في إطار فكرة "جمهورية شمال إفريقيا المتحدة" خلال الحرب العالمية الأولى، ووصولًا إلى المشاركة الفاعلة في الثورة التونسية المسلحة (1952-1954). ويبرز هذا المبحث كيف تحوّل الجزائريون من لاجئين إلى شركاء في السلاح، مساهمين بشكل مباشر في المعارك وتقديم الدعم اللوجستي، مما يؤكد عمق الروابط المصيرية التي جمعت الشعبين في معركة التحرير من الاستعمار.

من خلال هذا البحث، نسعى إلى إبراز الأبعاد الإنسانية والسياسية لهذه الهجرة، والكشف عن دورها المحوري في ترسيخ ثقافة المقاومة المشتركة، التي كانت نواةً للعمل الثوري المغاربي الموحد.

1المبحث الأول: الدوافع التاريخية للهجرة الجزائرية إلى تونس :

الهجرة إلى البلاد التونسية كانت أداة قوية في ملمة الجراح التي ألمت بالشعب الجزائري عقب احتلال الجزائر المحروسة من طرف القوات الفرنسية الغازية ، والهجرة إلى البلاد التونسية كان لها عوامل عدة سواء جغرافية أو اقتصادية أو سياسية وغيرها من العوامل .

1-1 العوامل الجغرافية والبيئية

كان لموقع تونس على ساحل البحر الأبيض المتوسط ولوضعها الجغرافي بصفة عامة أثر كبير فيما طرأ عليها من أحداث على مر الأيام، مما طبع تاريخها وأوضاعها السياسية والاجتماعية بطابع خاص. وتبلغ مساحة تونس 125280 كم²، وهي تمثل القسم الشرقي من المغرب العربي الواقع في شمال القارة الإفريقية. تحدها من الغرب الجزائر، ومن الجنوب الشرقي ليبيا، وترتبطها بالجزائر سلسلة جبال الأطلس

التي تعتبر العمود الفقري لأقطار المغرب العربي. وقد جعلت من هذه الأقطار وحدة جغرافية متسعة¹. وإن مقومات التواصل بين القطرين التونسي والجزائري ترجع لعدة عوامل طبيعية. يقول شارل أندري جوليان في كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية" حيث لم يفصل تونس عن الجزائر بقوله: "إذا أمكن أن تكتب تاريخاً للمغرب الأقصى مستقلاً بذاته، فلا يمكن فصل الجزائر وتونس عن بعضهما. فهما قطران لا يوجد بينهما حواجز طبيعية، وهذا لنفس الضرورات". فالموقع الجغرافي يحتل مكانة استراتيجية مهمة في تماسك القطرين ووحدهما، شأنه في ذلك شأن الروابط الأخرى التي شكلت مجتمعة قاعدة للعمل المشترك خلال المرحلة الاستعمارية، وكانت الأساس في أي مشروع وحدوي مستقبلي. فتونس والجزائر إقليمان يشكلان كتلة جغرافية متناسقة، حيث يمثل ساحل البحر المتوسط أداة وصل لهما من الشمال، في حين هيات لهما هذه الوضعية الجغرافية الخاصة تشابهاً كبيراً في الظروف المناخية والاقتصادية، ومن ثم الاجتماعية ويسرت لهما أسباب التواصل².

كما أن انفتاح المنطقة الحدودية وانسائها نسبياً زاد في سهولة الاتصال. ذلك أن المنطقة الشرقية للأطلس التلي هي أقل ارتفاعاً من جزئه الغربي، حيث يصل أقصى ارتفاع شرقاً ألف وخمسمائة متر تقريباً وهو جبل الشعاني بتونس، بينما نرى الارتفاع يزيد عن أربعة آلاف وخمسمائة متر تقريباً في المنطقة الغربية، وهو جبل طوبقال بالمغرب. ويبدو من هذا المنطق الطبيعي الجغرافي مدى سهولة اتصال الجزائريين بالمناطق الشرقية أكثر من المناطق الغربية³. ويغلب على محور تماس الحدود بين البلدين الجزائر وتونس الطابع الصحراوي. إذ تتلامس بالحدود الغربية التونسية والحدود الشرقية الجزائرية (قبائل الفراشيش التونسية) مع قبائل (الغربة الجزائرية) التي تمتد مجالها الجغرافي بين وادي ملاق شمالاً حتى إقليم الشطوط والصحراء جنوباً. إذ يستقر أولاد سيدي يحيى بن طالب في منطقة الوزنة والمريخ وعين الزرقاء شمال مدينة تبسة، وإلى جنوبها (قبائل العلاونة)⁴، مجال (القبائل التونسية الفراشيش) و (أولاد بوغنام) بقلعة سنان شمالاً، و (الهامامة) بالجزيرة جنوباً⁵. ويشارك من جهة أخرى الجريد التونسي مع الجنوب الشرقي الجزائري في الكثير من الخصائص الجغرافية. فهو يمتد على طول 800.00 كم، وينخفض سطحه إلى 35 متر عن شط ملغيغ بين مدينة بسكرة ومدينة وادي سوف ووسط الجريد بالقرب من مدينة قفصة وجزء كبير منها مدينة توزر ونفطة التاريخية. ويبلغ ارتفاعه ما بين 12-15م عن سطح البحر. وهي المنطقة التي حاولت

¹ الحبيب ثامر: هذه تونس، تقديم رشيد إدريس، مراجعة وتحقيق حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي لبنان 1988، ص1.

² Charles-André JULIEN : **Et la Tunisie devint indépendante(1951-1957)**, Ed, Jeune Afrique, Paris, 1985, p205

³ فكيرين : الدعم التونسي للثورة الجزائرية 1954-1962، مذكرة شهادة ماستر تاريخ معاصر، اشراف إبراهيم غاشي، قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2013-2014، ص 8.

⁴ أيضا نضيف أولاد سيدي عبيد، الجلامدة، ساكنة نقرين، الفرجان، الربيع (بن قشة، الدويلات، الساباييس، بوغروء"الطالب العربي الآن" دوار الماء)، جبل زاريف الواعر، زاريف الساحل، نقرين، سندس

⁵ إدريس رائسي: القبائل الحدودية التونسية الجزائرية بين الإجارة والإغارة (1830-1881)، ط1، الدار المتوسطة للنشر، تونس، 2016، ص23.

فرنسا ربطها بالبحر المتوسط، وإدخال المياه إلى الحدود الجزائرية من خليج قابس عبر شطي الجريد وملغيغ¹. وقد كانت ممرا مهما وأساسيا كما سنرى في التسليح للثورة الجزائرية.

1-2 - العوامل التاريخية والسياسية:

لقد كان الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، السبب الأكبر في هجرة الجزائريين نحو المشرق عموما وتونس خاصة. وكانت سنة 1832م معلما مهما في بداية الهجرة نحو المشرق العربي وغيرها من الأقطار، ذلك أنه أضحى أمر اضطهاد الفرنسيين للجزائريين حقيقة ساطعة.

وبعد تعيين روفيقو كحاكم عسكري عام للجزائر، اتضحت النوايا السيئة للمستعمرين الفرنسيين وما كانوا يكونونه من حقد وضغينة اتجاه الجزائريين. إذ أثقل روفيقو كاهل الأهالي بالضرائب وقمع بيد من حديد كل حركات التمرد التي قامت ضده، مثل امتناع قبيلة العوفية عن دفع الضرائب الثقيلة التي فرضت عليها، فقام روفيقو بإبادتها عن بكرة أبيها. ومن جهة أخرى كان الجنرال بوايي قد ارتكب في وهران أرذل الجرائم. وفي نفس الوقت كان المملوك يوسف التونسي والنجيب الفرنسي دارماندي يتحكمان في مدينة عنابة القريبة من الحدود التونسية بيد من حديد. هذه المظالم الكبيرة هي التي دفعت الجزائريين إلى ترك ديارهم وأهلهم وذويهم بحثا عن ملجأ آمن. ومن الطبيعي أن تتجه أنظار الجزائريين الذين كانوا يفكرون في الهجرة إلى البلدان القريبة منها: تونس أو المغرب². كما أن تعثر وفشل ثورتي الأمير عبد القادر (1833م-1847م) وأحمد باي (1830م-1849م) في مواجهة الاحتلال الفرنسي عجلت بعملية الهجرة نحو البلاد التونسية خصوصا، والمشرق العربي عموما. وبانحياز ثورة أحمد باي في قسنطينة، تضاعفت الهجرة نحو الخارج³. إذ لجأ إلى تونس عدد كبير من المقاومين الجزائريين، ومن بينهم: الشيخ محمد الحسناوي بن بلقاسم الحناشي الذي سعى يوسف الليقرو المنتصر لاستعادته، فلم يفلح بفضل تأييد الشعب التونسي له. وبعد ثورة الزعاطشة عام 1849م وقيام الجيش الفرنسي بتخريب عمران الواحة ونخيلها، لجأ من نجا من الثوار والمقاومين إلى نفطة وتوزر ونفزاوة بإقليم الجريد، وآواهم الأشقاء التونسيون، وقدموا لهم العون والمساعدة، وفعلوا نفس الشيء مع خليفة الأمير عبد القادر، ومحمد الصغير بن عبد الرحمان، والشريف محمد بن عبد الله، وثوار الزواغة وفرجيوة عام 1846.

تعتبر سنة 1871 حاسمة في التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الجزائر، كما كان لها تأثير بالغ في تاريخ الشعب الجزائري. وكانت أكبر تظاهرة للثوار الجزائريين إلى تونس، هي صبايحية زمالات الحدود الشرقية بزعامة محمد الطاهر الكبلوتي، وأفراد عائلة رزقي والثوار المقرانيين، وبن ناصر بن شهرة. وقد وزعوا في عدة جهات من تونس⁴. وإن تطور المقاومة الجزائرية أدى إلى الانتقام من السكان ومصادرة أملاكهم، وانتهاج سياسة استعمارية جديدة عرفت بسياسة الاستعمار الرسمي، والتي تضمنت تطور عدد المهاجرين الأوروبيين وتزويدهم بمساحات واسعة من الأراضي مجانا، وإنشاء المدن الصغيرة التي سمحت للمهاجرين الأوروبيين بتوغلهم في الريف الجزائري،

¹ إبراهيم مياسي : توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص 9.

² عمار هلال : الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام (1847-1918)، دار هومة الجزائر، 2007، ص ص 12-13.

³ بوعزة بوضرساية : الحاج أحمد باي رجل دولة ومقاوم 1830-1848، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1992.

⁴ يحي بوعزيز : موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج2، دار الهدى، عين مليلة، 2004، ص ص 203-204.

وتجهيز الجزائريين إلى مراكز استيطان خصصت لهم من طرف إدارة الاحتلال بغرض إخماد المقاومة¹، ومن جهة أخرى أصدرت سلطات الاحتلال مراسيم سياسية أخطرها في أكتوبر 1870 الذي نص على منع الجزائريين المسلمين من المشاركة في هيئة المحلفين الشرعيين الذين كان لهم حق النظر في القضايا المقدمة، واعتبار الجنسية الفرنسية أساسية في تعيين المحلفين الشرعيين في هيئات المحاكم². وقد أوجدت مرحلة اليأس واستحالة العيش داخل الجزائر إلا بوجوب الهجرة بعد أن حجزت أغلب الأراضي التي كانت المصدر الوحيد لبقائهم داخل الوطن وأعطيت للمعمرين.

1-3- العوامل الاقتصادية

لقد كان للسياسة الاستعمارية في الجزائر منذ عام 1830 تأثيرها البالغ في تغيير الأوضاع الاقتصادية وهدم البنية الاجتماعية، وتشريد الأهالي. وعملت سلطات الاحتلال على اغتصاب الأراضي الزراعية، والقضاء على الأسواق التجارية. فأهلكت الثروة الحيوانية، وفرضت الضرائب الباهضة التي تجاوزت قيمتها طاقة الجزائريين الذين تعرضوا لأبشع أنواع الاضطهاد، خاصة لما تأكدت فرنسا أن الشعب الجزائري مقاوم برمته، وأنه يستحيل استمالته. فأصبحت مسألة حرمانه من أرضه ومن حق الحياة أصلاً مشروعاً في حد ذاته، وانتهى الأمر بسلطات الاحتلال إلى فرض واقع اتسم بسياسة التجويع والحرق والتخريب.

وقال في ذلك العقيد روبين (colonel Robin): " وفي شهر ديسمبر 1842 قام الملازم بيلييه بشن غارات على القبائل المتاخمة للمتيجة، حيث هجم ب150 دركيا وغنموا 200 ثور و800 رأس من الغنم والماعز بالقرب من وادي قرصو وجزء من الخشنة الذين ارتكبوا أفعالا تستحق الشجب. وفي 29 جانفي 1843 حدث في الجبال الواقعة بين بني زواله وبني صعدة على الطريق المؤدي إلى حمزة قتل عشرات السكان من بينهم القائد عمار وتم غنم 300 ثور وماعز وغنم. وفي بعض المعارك يتم قطع الرؤوس بالمناجل. وفي منطقة بني عامر بين وادي بورني ووادي الحمام تم غزوها مع غابة بوهني بفضل عمليات التطهير المتتالية وباستخدام الحرق"³.

وكانت هذه السياسة من أجل جلب المستوطنين، واستبدال هذا الشعب المهمجي حسبهم، لأنه يستحيل التعايش مع شعب متمرّد. يقول ديدوفيل الذي يعتبر أحسن من ترجم حياة بيجو، وكان ذلك في 1882 م: "إن الفضل الأكبر الذي ينبغي أن نعترف به لبيجو، هو أنه أدرك بأننا لا نواجه جيشاً حقاً، بل نواجه السكان أنفسهم. وأنه لا بد لكي نستقر في مثل هذا البلد، أن لا يقل الجيش في حالة السلم عما هو عليه في حالة الحرب من حيث العدد والعدة". ولم يكن هذا الأخير يمزج حينما تحدث في رسائله عن مشروع ترحيل الأهالي إلى جزر ماركيز، وشبيه به مشروع "ريشار" سنة 1845 بضرورة تجميع الأهالي قاطبة في أماكن معينة. وهكذا أصبح الجزائريون مسخرين فقط لخدمة المعمرين. وأصبح مالك الأرض خادماً عند مستعمره، وبإذلال وقهر. وأصبح شعارهم "على كل واحد من سكان

¹ عمار بوحوش : العمال الجزائريين في فرنسا "دراسات تحليلية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص63.

² محمد مرزاقه : الهجرة وفوائدها الثمرة الثانية "النشرة السنوية ل(ج. ط. ج. ز) 1947-1948، مطبعة متليلي، غرداية، ص 56-57.

³ Le colonel Robin : Notes Historiques sur LA GRANDE KABYLIE de 1838 A 1851., ALGER, TYPOGRAPHE ADOLPHE JOURDAN, IMPRIMEUR- LIBRAIRE- EDITEUR, PLACE DU GOUVERNEMENT, 1905, p p, 25-29.

البلاد: الجندي بسيفه، والمعمّر بمحرّائه، والراهب بصلاته، والعربي بخضوعه"¹. فأجبر الجزائريين على الهجرة الخارجية كحل للخروج من هذه الأوضاع السيئة التي أصبحت عليها الجزائر في المدن والأرياف، الأمر الذي دفع بالعديد من العائلات والقبائل والعروش إلى الهجرة. فكانت البلاد الإسلامية ملجأ للعديد من الجزائريين، وخاصة منها البلاد التونسية، وذلك لعدة أسباب أهمها: القرب الجغرافي، وخاصة منها المناطق الشرقية من الجزائر، واستقبال سلطات الأيالة التونسية للمهاجرين الجزائريين خاصة في الفترة السابقة للحماية الفرنسية لتونس باعتبارهم مسلمين دخلوا بلدا مسلما. وكان هدف سلطات الاحتلال من دفع الجزائريين للهجرة، هو تجسيد سياسة الاستيطان. فتدفقت الهجرة الأوروبية نحو الجزائر التي استولت على الأراضي الزراعية².

وتجسيدا لذلك قامت سلطات الاحتلال بسن ترسانة من القوانين لمصادرة الأراضي. ففي سنة 1851م صدر قانون ملكية الأراضي الذي يضمن حق التملك دون تمييز بين الأهالي والمعمّرين خلال فترة الاحتلال وبعدها. ولم تمض سنوات طويلة حتى جاء القرار المشيخي سنة 1863م الذي أقر بحق الملكية الفردية وتوطين الأوروبيين في العشيرة، فألغى بذلك فقرتين من المادة 14 من قانون 1851م. وهكذا أصبح المجال مفتوحا لامتلاك أراضي الأهالي والعروش والقبائل الجزائرية وتفتيتها، الأمر الذي فتح المجال أمام الشركات الأوروبية الرأسمالية في امتلاك الأراضي. وقد صرح الكونت دو كازيانكا (de Casabianca) في 8 أبريل من نفس السنة باسم اللجنة المشيخية المكلفة بدراسة القرار المشيخي "أن مستقبل الاستعمار لا خوف عليه بعد ما تقرر استملاك الأراضي التي كانت للعرب، والمعمّرون أنفسهم يطلبون ذلك بإلحاح، ويرغبون أن يتم هذا الأمر في الحين. فالدولة عندما اتخذت القرار المشيخي، لا تتخلى عن أراضي الشمال لأنه يمكن أن تسلمها في المستقبل للمعمّرين"³. وهكذا جاء قانون 1863 وكذا قوانين الجمهورية الثالثة والحرب السبعينية التي جاءت بموجة جديدة من المهاجرين من الألبان واللورين، وقانون الأهالي الذي صدر بعد ثورة 1871 والتي جعلت الجزائري خماسا في أرضه⁴. وما زاد في حركة الهجرة بشكل أكبر، تلك الظروف القاسية التي عاشها الشعب الجزائري في أواسط القرن التاسع عشر، حيث وقعت بين سنتي 1867م-1868م أزمات اقتصادية حادة بسبب الجفاف وقلة المحاصيل الزراعية، إلى أن وصل لحد المجاعات الرهيبة. كما اجتاحت الجراد مناطق هامة في الشرق الجزائري، وأتى على الأخضر واليابس، الشيء الذي دفع بالفلاحين الجزائريين إلى مغادرة أراضيهم التي أصبحت لا تغيدهم في شيء سوى أنها تدفع بهم إلى الهلاك جوعا. وكانت سنة 1893م أشد قسوة عليهم مما اضطر الإدارة الاستعمارية أن ترفع مؤقتا حظر الانتقال من منطقة لأخرى، وتسبب ذلك في نزوح عائلات جزائرية كثيرة إلى تونس والمغرب وليبيا وسوريا. ولم تنفطن السلطات الاستعمارية الفرنسية إلى هذه الهجرة الجماعية إلا بعد فوات الأوان⁵.

¹ مصطفى الأشرف : الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصة، الجزائر، 2007، ص ص 299-315.

² عبد الجليل التميمي : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816-1871)، رسالة من حمدان خوجة إلى السلطان العثماني محمود الثاني،

الدار التونسية للنشر، تونس، ص 168.

³ مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص 15.

⁴ أبو القاسم سعد الله : خلاصة تاريخ الجزائر المقاومة والتحرير 1830-1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007، ص 81.

⁵ عمار هلال المرجع السابق، ص ص 17-18.

2- المبحث الثاني: دور الجالية الجزائرية في المقاومة الشعبية خلال الحقبة الإستعمارية

بعد أن أصبحت الجالية الجزائرية في البلاد التونسية أمرا واقعا في ظل اللجوء المضطر والذي طال مع الأجيال ، هذا الوجود في حد ذاته أصبح عامل قوة مع الزمن من خلال المشاركة الأخوية مع إخوانهم التونسيين في جميع محطات النضال والكفاح السياسي والعسكري التونسي .

2-1 : المقاومة العسكرية والتنسيق المشترك

منذ أن أعلن الاحتلال الفرنسي الحماية للبلاد التونسية سنة 1881م، قام الجزائريون بمقاومة المحتل مع إخوانهم التونسيين منذ الوهلة الأولى. وإن تحدثنا عن أنواع المقاومة سابقا بجميع الأصناف، فسوف نتحدث هنا عن دور الجزائريين في إعانة إخوانهم التونسيين في فترة الحماية لغاية بداية الثورة الجزائرية 1954 بالسيف والبارود والرصاص. وكان الجزائريون سنداً لإخوانهم التونسيين في رفضهم للحماية. ومن بين المعارك المشتركة في بداية فرض الحماية، معركة قبائل خمير التي كانت مرابضها تتأخم الحدود الجزائرية التونسية. وقد ذكر الشعر الشعبي في زمانها ملاحم هذه المعركة، وأشار إلى تلاحم الجزائريين مع إخوانهم التونسيين بقوله¹:

سرى من عنابة فرع بالميه من قلعة بني عباس والختال
عرب واد بومرزوق وديزي وسوق أهراس يجي في المنزل
تسمع طبولهم كأنها رعيه وأما العساكر ع الخنق عطل

كذلك ما سمي بأحداث "تمغزة" وقد كان سببها الجزائريون الوافدون لتونس حسب التقرير الفرنسي الذي أتهم الولي مصطفى بن مبروك الجزائري الذي شارك في ثورة العماري في دائرة بسكرة سنة 1876 ولجأ إلى تونس. وهو الذي أعان المرباط الحفناوي، شيخ زاوية تمغزة، في نشر التعصب الديني عند وفود المسلمين الموجودين هناك. وكان يصعد الصومعة ست مرات يوميا يدعو للجهاد. وذكر التقرير أن كميات كبيرة من الأسلحة صنعت منذ مدة بقرى تمغزة والمداس والشبيكة. وقد ذكر التقرير أن الحفناوي وعدهم أن الأتراك وافدون لقتل المسيحيين وطردهم من تونس. وقد حضر هذه السنة عدة رواد من طرابلس وممثلون عن كل زوايا الجريد².

أ - ثورة الفراشيش سنة 1906م وإسهامات الجزائريين فيها

هي ثورة قام بها أحد الجزائريين قادها مشيا من الحدود الجزائرية مع مجموعة من الثوار. حيث ذكرت برقية مؤرخة في 27 أبريل 1906 من معتمد الإقامة العامة بتونس إلى وزير الخارجية الفرنسية: "علمت من بعض الأهالي أن ولدا قادمين من الجزائر، كان قد أثار جزء من أولاد ناجي من قبيلة الفراشيش بنواحي القصرين، وأن أوروبيين قد قتلوا في هذه المدينة"³ واتسمت بأنها كانت في الريف التونسي. وسميت أيضا بثورة الفلاحين لأنها قامت في وسط قبلي ريفي في منطقتي تالة والقصرين. وقد اندلعت هذه الثورة في ظرف اتسم بالظروف المعيشية الصعبة لقبيلة الفراشيش التي استولى المعمرين الفرنسيون على أغلب أراضيها الزراعية، بعد أن أصدرت المحكمة العقارية المختلطة

¹ عدنان لمنصر، عميرة علية الصغير : المقاومة المسلحة في تونس الجزء الأول: 1881-1939، ط2، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 2005، ص 49.

² عدنان لمنصر، عميرة علية الصغير، المرجع السابق، ص 127.

³ نفسه، ص 142.

يوم 25 جوان 1896 أمرا بتسجيل هنشير¹ القصرين الذي كان ملكا للباي، ويمسح 6000 هكتار. ففي عملية ضم هذا الهنشير، ضموا معه كل أراضي الأهالي من قبيلة الفراشيش، محولا أغلب الأهالي كأهم جيش من الفقراء. وقد بلغ عدد المعمرين الفرنسيين 5 يتحكمون في 480 هكتار من أكثر أراضي الارتواء، أما باقي الهنشير فكان يؤجر لمعمرين وشركات فلاحية وفقا للشروط المعمول بها بباقي أرجاء تونس. كما أدت التنقيبات الباطنية التي أجراها الفرنسيون إلى اكتشاف منجم رصاص والزنك بعين خمودة وبعين نوبة وجبل العتراء ومنجم للرصاص بجبل الشعاني، وخاصة منجم الفوسفات بالقلعة الجرداء التي تبعد عن القصرين حوالي 67 كم، شرعت شركة إيطالية في استغلاله سنة 1904م. ونتيجة لذلك، تحول قسم هام من الجهة إلى جيش من الخماسة وعمال أجراء².

وتذكر التقارير الفرنسية الحالة الاجتماعية المزرية للفراشيش³. إذ عمت بينهم المجاعة مما اضطر السكان لأكل الحشيش البري. وبالمقابل كان الفرنسيون الذين انتزعوا الأراضي يعيشون في رغد العيش، بل يسلطون على الأهالي أقسى العقوبات في المعاملات معهم. وكانت هذه النتائج خمية طبيعية للثورة. و اعتبر قائد الثورة نفسه وليا صالحا. وكانت أحداثها وقعت في منطقة تالة والقصرين التونسيين. و عدت هذه الثورة بداية لثورات الانتفاضة ضد الوجود الفرنسي في تونس. اندلعت الثورة في 26 أبريل 1906م بقيادة البطل الجزائري عمر بن عثمان⁴ الذي كان يتمتع بمكانة خاصة عند الأهالي، ويعتبرونه وليا صالحا. ففي صبيحة هذا اليوم، توجه العشرات من الجموع الغاضبة، وفي مقدمتهم "عرش القدادشة" إلى ممتلكات المعمرين ومزارعهم، وقرروا الانتقام منهم، وقتلهم واسترجاع أراضيهم إلا من أعلن دخوله للإسلام، وذلك كردة فعل على ما فعله الأوروبيون من ظلم في حق المزارعين. فقد قتل 3 من المعمرين وأسر 4 آخرين⁵. وفي شهادة لأحد التجار الفرنسيين، روى ليلة الثورة بتفاصيل دقيقة يقول "... علمت من بعض سكان الحنادرة أن وليا مستقرا بفرسانه كان يدعو للثورة على المسيحيين، ويحرض الأهالي على قتل الأوروبيين أو على إجبارهم على اعتناق الإسلام.... يوم الخميس 26 أبريل.

¹ الموسوعة الشاملة، "هنشير والجمع هناشر: الاسم الذي كان يطلق على الخرائب الرومانية في أفريقيا (شيرب، بوسويه، بارت، 69: 52: 1 الخ، باليسيه 19، 344 الذي أضاف، مازحا، في حديثه عن امرأة قد شاخت: إنها هنشير". <http://islamport.com/k/mjm/5262/4065>. تاريخ التصفح 2021/8/3، الساعة 9: 47.

² موقع ليدز العربية: <https://ar.leaders.com.tn/article/4402> تاريخ التصفح 2021/8/3، الساعة 17: 23.

³ عدنان لمنصر، عميرة علية الصغير، المرجع السابق، ص 132.

⁴ عمر بن عثمان: هو فضلي بن عثمان بن عبد الله، وأمه فاطمة بنت يونس وعمره 25 سنة. ولد في ضواحي "قالمة" وعمل في أول شبابه راعيا ثم أصيب بمرض السل وبداء الصرع (نقلها عن صحيفة "لاديباش تونزيان" نوفمبر 1906)، وترك مهنته وذهب إلى زاوية من الزوايا التي تكرم الضيف وتعلم القرآن الكريم، حيث لازمها شهورا، ثم ظهرت عليه أعراض الانجذاب، وارتحل من الزاوية لينتقل من مكان إلى آخر، حتى ورد إلى قرية "فوسانة" من قرى قبيلة الفراشيش، قادما إليها من ضواحي "سوق أهراس". وهناك أكرمه كل من: المقدم علي بن محمد بن صالح، وفرحات بن محمد بن أحمد، من أعيان الفراشيش. وكان دخوله إلى هذه القرية ما بين ديسمبر 1905 وجانفي 1906. وكانت أمارات الانجذاب وشدة التدين وظواهر التقوى والصلاح المتمثلة في الشاب عمر بن عثمان من أقوى الأسباب التي جعلت رجال الفراشيش يتعلقون به، ويضفون عليه صفات الصلاح والولاية والكشف أحيانا، بالإضافة إلى كثرة صمته وغموض في كلامه وحماس في لهجته. يضيف على كل هذه الصفات شيئا من الرهبة والخشوع، وشعره الكثيف المنهدل على كتفيه غامرا وجهه وصدره. انظر: محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص 18-19.

⁵ مجلة تونس الخضراء: <https://www.tounesalkhadra.tn>، تاريخ التصفح 2021/8/1، الساعة 1: 14.

وعندما كنت أعمل في الفرن، جلبت انتباهي صيحات قادمة من السهل، حيث رأيت مجموعة من العرب متوجهة ناحية البرج، وقد لاحظت على رأسهم المسمى أحمد بن مسعود الذي كان يمتطي جوادا على ملك السيد صال، وبين يديه بندقية للسيد صال أيضا، وكان يرتدي بنوسا ملطخا بالدماء. كما لاحظت من بين أتباع أحمد بن مسعود عددا كبيرا من سكان دوار الحنادرة ودوار أولاد موسى.... لقد أحاطوا بي جميعا وهددوني ببنادقهم قائلين أنهم تلقوا الأمر من الولي بقتلي إذا لم أنطق بالشهادة ثلاث إنذارات.... وتحت وطأة الفرع، فعلت ما طلبوه مني ناطقا في كل لحظة بلا إله إلا الله محمد رسول الله. عند ذلك تركوني تحت حراسة البعض منهم. ثم وقع نهب منزل السيد برتران ومتجره، وأجبرت أخته على النطق بالشهادتين قبل أن يؤخذ أسيرا لدى المنتفضين من قبيلة الحنادرة. وفي الليل جاء قادة قبيلة الحنادرة إلى خيمتنا، وقالوا لنا أن الولي أصدر الأمر بالسير نحو تالة. وهناك لاحظت حركة هامة في المخيم طول الليل، وكان يقال أمامنا أن الخطة تقضي بالسيطرة على تالة، ومنها المسير نحو الكاف، وأخيرا نحو تونس..... وحوالي الساعة التاسعة صباحا، رأيت مجموعة من الفرسان قادمين من ناحية تالة، وقد كان معظمهم من أشرف هذه المدينة، وكان من بينهم شيخ أولاد سيدي زيد، أما الخليفة الذي كان على رأسهم فقد أوماً إلي بعدم التعرف عليه، ثم اتجه نحو خيمة الولي وبادره بعد أن أظهر كل الاحترام. لقد أقنع الولي بالسير نحو تالة مؤكدا له - حسب ما بلغني - أن المدينة احترقت، وأنه يجب استغلال هذه الفرصة لإجبار المسيحيين على الإسلام أو قتلهم. وبفضل هذه الخدعة، وافق الولي على السير نحو تالة¹.

وتوجه الثائرون نحو تالة، ووصلت الأخبار للفرنسيين قبل وصولهم، فتهيا لهم الجميع من جنود احتلال و"صباحية" وتجار على أسوار المدينة. وما أن اقتربت جموع "القدادشة" حتى اقتنصتهم بنادق المتأهبين على أسوار تالة دون أن يكون لهؤلاء الثوار اعتبار للرصاص، فقبلوه بصدور عارية، واستشهد في المذبحة 12 نائرا، دفتهم قوات الاحتلال في مقبرة جماعية بقيت في الذاكرة تسمى "حفرة الأئناش"². وبمكيدة من الشيخ قعيد بتالة على محركها عمر بن عثمان صحبة مقدم الزاوية علي بن محمد بن الصالح، حيث نجح في إقناع الولي بأنه سيكون من أتباعه، واستدعاه للقدوم في الحين إلى بيته الموجود في أطراف تالة صحبة المقدم. لكنه غدر بهما وسلمهما للقوات الفرنسية التي قامت بنقل عمر بن عثمان إلى سوسة للمحاكمة مع بقية الموقوفين في الانتفاضة. وحسب التقارير الرسمية كانت حصيلة الانتفاضة 15 قتيلا، 3 أوروبين و 12 تونسيا و 7 جرحى³.

وقد أشارت الوثائق الفرنسية إلى قائد الثورة من خلال استنطاقها له، ففي تقرير فرنسي كتبه في 20 ماي 1906 "Paul Ghouthier" الكاتب العام المساعد إلى السيد "Roy" الوزير المفوض، والكاتب العام للحكومة التونسية بعد عملية الاستنطاق لقائد الثورة عمر بن عثمان الذي ذكره التقرير أن القائد عمر بن عثمان البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة، المولود بروس الشواشي من منطقة سوق أهراس، وقد وصفه التقرير بالقذر، وأنه مصاب بالزهري والسل، ولا ينتمي لأية طريقة صوفية، وأنه لا يعترف بأي ولي، هو يؤمن فقط بالله والرسول. وقد أشار له التقرير بأنه لا يمتلك قدرات عقلية، وأنه سوى أداة لآخرين. ومن جهته يؤكد مقدمه علي بن محمد بن صالح، في نفس الاستنطاق، خط السير الذي اتخذته عمر بن عثمان (منذ قدومه من الجزائر)، لكنه أحجم حسبهم عن الدواير

¹ عدنان لمنصر، عميرة عليّة الصغير، المرجع السابق، ص 135-136.

² مجلة تونس الخضراء، المرجع السابق، تاريخ التصفح 2021/8/3، الساعة 23: 40.

³ موقع ليدز العربية، المرجع السابق، تاريخ التصفح 2021/8/4، الساعة 12: 40.

التي مر بها أو آوته من الجزائر حتى تونس. ويذكر التقرير أنه تنكر لهم، وأصبح يقلل من توقيت معرفته بعمر عثمان. وتحدث عن سطوة صال، وأنه علم لاحقا بقتل صال وعائلته، وأنه سمع من الأهالي أنه كان يفتك أراضيهم وإبلهم وحيواناتهم¹. ويعتبر هذا التقرير إجحافا في قائد الثورة. والظاهر أنه لم يعنهم في عملية الاستنطاق، لذلك اتهمه التقرير بالحقارة. إذ لو أنه اعترف لهم، لما حكم عليه فقط ب 10 سنوات سجن نافذه و 20 سنة إبعاد، بينما حكم على صديقيه: علي بن صالح وحرث بن علي بالمؤبد. ولم يدم طويلا بل توفي بعد عامين من آثار التعذيب في 13 ماي 1906².

وقد اعتبرت فرنسا القضية حقا عاما لا قضية سياسية. وقد دام التحقيق فيها عدة أشهر ولم تصدر الاتهامات إلا في 21 سبتمبر 1906. فقد تمت إحالة 59 متهما على المحكمة الجنائية بسوسة، وكانت أوضاع الموقوفين مزرية، وتعرضوا لتعذيب شديد، وكان بعضهم حفاة عرا يرتجفون من البرد، بينما جيئ بقائد الثورة على نقالة، وظهر هزيلا جدا مكبلا بالأغلال يوم 28 فيفري 1907. و لم يظهر طيلة المحاكمة كأنه في حكم المختطف. وظهر جميع الموقوفين في المحاكمة في 22 نوفمبر 1906، وتراوحت الأحكام بين 5 سنوات والإعدام مع التنفيذ في الساحات العمومية بسوسة. ثم بطلب من المقيم العام البارون دانتوار، استبدلت الأحكام الثلاثة بالمؤبد مع الأشغال الشاقة. وقد توفي كما ذكرنا عمر بن عثمان بالمستشفى العسكري بسوسة، وأبعد علي بن محمد بن صالح إلى محتشد "كايان" حيث مات هناك³. وفي خضم هذه الثورة التي كان المحتل الفرنسي يقزمه في تقاريره، بل جعل قائد الثورة كأنه مختل عقليا، وأن مواجعتهم للرصاص كانت من تلك المعتقدات البالية التي تجعل من الثائر يقدم على الموت دون شعور، ويعتقد أن بوسائله البسيطة، وبصدره العاري يستطيع أن يجابه الرصاص لأن قائدهم الدرويش وعدهم بذلك.

لكن في خضم تلك الأحداث وفي 5 ماي 1906، كتبت نشرية La Tunisie Française، مستغربة من هذه الثورة، وأنها كانت معدة مسبقا من مدة طويلة (أي وفق خطة مدروسة)، وأحدثت هلعا في الأوساط الاستعمارية، وقالت نحن تحت أمن هش لا كما تطمئننا السلط، بل أنها قالت متى ينتهي التعصب الديني ونحن منذ 24 عاما في أمن خادع، وأرجعت الأسباب عامة، أي خارج مجال تونس أو الجزائر، وأسباب محلية. وأول تهمة حاضرة، هي ما تقوم به الدولة العثمانية من خلال الجامعة الإسلامية، " وأن الحرب التي قامت بين الروس واليابان أيقظت لدى المسلمين أمل التحرر من شر الأمم الأوروبية التي تزعزعت هيبتها بشدة. لقد أصبح انسجام هذه الأمم الأوروبية في نظرهم متصدعا عندما رأوا إحداها، وهي ألمانيا، تضع نفسها في شخص إمبراطورها حاميا للإسلام. وقد أضرت سياسة القيصر إزاء تركيا وسفره إلى طنجة. وأخيرا ندوة الجزيرة بالنفوذ الفرنسي في شمال إفريقيا"⁴.

فانظر الأبعاد التي تتحدث عليها هذه الوثيقة كأنها تكذب تلك التقارير التي تقزم هذه الثورة. إذ أن الثورة جاءت وفق تراكمات دولية استغلها قائد هذه الثورة، وأحدث إرباكا في الأوساط الاستعمارية، لذلك أرادوا التقليل من شأن زعيمها، وجعلوه شخصا معتوها. لكن لم يطرحوا تساؤلا كيف يحتل مدنا ويجيش هذه الجموع ويدفعها للموت، لولا أن هناك دافعا وطنيا ودينيا في نفس الوقت ؟ ناهيك عما

¹ عدنان لمنصر، عميرة علي الصغير، المرجع السابق، ص 137.

² مجلة تونس الخضراء، المرجع السابق، تاريخ التصفح 2021/8/3، الساعة 23: 40.

³ موقع ليد زالعربية، المرجع السابق، تاريخ التصفح 2021/8/4، الساعة 1: 18.

⁴ عدنان لمنصر، عميرة علي الصغير، المرجع السابق، ص 133.

ذكره التقرير عن الأسباب المحلية التي ردها للتساهل المفرط من طرف السلطات التي جعلتها تطمئن وتظن أنه يستحيل على الشعب التونسي أن يثور ويقبل تزعمه من جاره الجزائري. بل زادوا في هذا التقرير أن قادة الثورة متأثرون بدعاية ملك بروسيا من خلال مبعوثين له في السر¹. وهنا يطرح تساؤل وجيه على ذلك التشابك لدعوة الجامعة الإسلامية من خلال الخلافة العثمانية، وإيمان جيوب المقاومة للثورات الشعبية بذلك مثل عبد الملك بن الأمير عبد القادر، وهل الوعد الذي وعدت به ألمانيا مع الحكومة العثمانية من إقامة مملكة في شمال إفريقيا، ولكن يذكر أن عبد الملك في سنة 1906م كان قائدا لجيوش القصر الكبير للسلطان عبد العزيز المغربي²، وأن السلطان عبد العزيز كان مواليا لفرنسا، فهل هذه النشيرة تعطينا رأيا آخر في أن الاتفاق بين الأمير عبد الملك وألمانيا والدولة العثمانية كان قبل تاريخ هذه النشيرة، وأن فرنسا تعلم بها، وأن اتفاقه مع السلطان عبد العزيز "تقية" فقط لمرحلة حتى يهيئ الثورة كما ينبغي. فهل كانت ثورة الفراشيش من آثار هذا الاتفاق؟ خاصة أن القائد جزائري والثورة في تونس والتقارير تتحدث عن الدعاية البروسية والعثمانية، والاتفاق كان على أساس وحدوي لشمال إفريقيا، والأهم أن التقرير قد ربط هذه الثورة بالشعور الوطني من خلال قوله "... باعتبار قوة الشعور الديني لدى هؤلاء السكان، وهو نمط ما نسميه بالوطنية".

هذا دليل إثبات أن هؤلاء المواطنين تأثروا بذلك الشعور الديني، وهو الرابط الوحيد في وقتها لجمع الكلمة. وحدد المصطلح جيدا على أساس وطني، لأن حركة الأمير عبد الملك كانت في بدايتها ولم تظهر ملامحها للوجود بعد، لكن أثرها موجود من خلال هذه الثورة، وإلا ما جعلوا لها كل هذه الأبعاد، وأحدث إرباكا حقيقيا. خاصة نحن نعلم أن ثورة بوعمامة في الجزائر كانت نهايتها قريبا جدا من ثورة الفراشيش سنة 1904م. والسبب الأخير الذي ذكرته النشيرة والذي يذكر دوما، هو العوز والفقر الذي أصاب هذه القبائل، مع سنوات عجاف من القحط العام زاد من سخط الأهالي على المعمرين الفرنسيين. حيث أنكرت على السلطة عدم السؤال عن هؤلاء الأهالي وما يعانون، ولم توفر لهم أسباب العيش الكريم، مما جعلهم جنودا لكل تائر³.

ب- مساهمة الجزائريين في الثورات التونسية (1919-1945) التحالفات والإستراتيجيات

تطورت الأمور في الجانب الوحدوي للجهاد ضد الوجود الاستعماري عموما، وضد المحتل الفرنسي خصوصا في البلدان المغاربية، وأصبحت الاتفاقات السرية مع دول المحور منها الدولة العثمانية وألمانيا، ودعوة الجامعة الإسلامية وفق خطين: الأول مثله الأمير عبد الملك الجزائري الذي عمل في خط (برلين، مدريد، طنجة)، والخط الثاني (إسطنبول، جنيف، برلين) والتي يمثلها علي باش حبه والشيخ صالح الشريف وإسماعيل الصفايحي ومحمد الخضر حسين. فقد كانت ثمرة هذا الجهد على الأرض ثورات مثلها عبد الكريم الخطابي والأمير عبد الملك في المغرب، ومثلتها ثورة 1915 في تونس. ولقد كان لفتوى شيخ الإسلام بالأسيتانة مقر الخلافة العثمانية فتوى بوجوب إعلان الجهاد المقدس من كافة المسلمين ضد دول الحلفاء أعداء الإسلام. وانتشرت هذه الفتوى في عموم البلاد الإسلامية، فآثارات صعوبات لانقلترا في الهند، وفجرت حماسا للثورة والعصيان في الشمال الإفريقي⁴. فعلى مستوى تونس، كانت هناك اتصالات

¹ عدنان لمنصر، عميرة عليّة الصغير، المرجع السابق، ص 133.

² محمد بالقاسم، المرجع السابق، ص 117.

³ عدنان لمنصر، عميرة عليّة الصغير، المرجع السابق، ص 133.

⁴ محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص 37.

سرية يقوم بها مصباح بريش¹ قام بدور كبير في نقل الرسائل إلى قادة ونخب الحركة الوطنية في تونس، وقادة القبائل التونسية لأجل نقل السلاح لهم من تركيا إلى تونس للبدء في الثورة، لكن فرنسا تفتنت لذلك، واعتقلت أغلب قادة القبائل. لكن قبائل الجنوب وصلها خبر ما قامت به فرنسا، فأعلنت الثورة. وقد وصلت للجماهير القاعدية أن هذه الثورة من أجل إقامة "جمهورية شمال إفريقيا المتحدة"، تمتد حدودها من مصر إلى المحيط الأطلسي، وتجمع تحت جناحها: ليبيا- وتونس - الجزائر- والمغرب الأقصى. وتداول الناس ذلك مع اسم زعماء الفكرة: علي باش حمبه وصالح الشريف. وقد أُرِجى الإعلان عنها إلى أن يتم تحرير جزء مما تحتله إيطاليا وفرنسا من الأراضي. وأن هذا الاعتراف صدر من قبل تركيا والنمسا وألمانيا، وسجل اسمها لدى محكمة العدل الدولية بلاهاي. وإن السعي لتحقيق هذه الفكرة بدأ بمجرد دخول تركيا للحرب إلى جانب ألمانيا أواخر عام 1914، وأن ألمانيا اشترطت للاعتراف بهذه "الجمهورية شمال إفريقيا المتحدة" إعلان الثورة على الفرنسيين. فجماعة تونس في تركيا تواصلوا بالجاليات الجزائرية والمغربية، وبزعماء المقاومة الليبية بطرابلس الذين يقاومون الإيطاليين مثل: "سوف المحمودي" و"سليمان الباروني". وتنفيذا لرغبة الألمان في الثورة على الفرنسيين، ورجاء الوفاء بما وعدوا به الوفد من المساعدة، وإمداد الثورة بما يلزمها من المال وآلات الحرب، وإنشاء "جمهورية شمال إفريقيا"، قامت الثورة بالحامة التونسية سنة 1915م لقرىها من الحدود الطرابلسية، وليسهل الاتصال بها، والاستناد إليها².

ومن بين المعارك التي ساهم فيها الجزائريون "معركة ماطوس" بلد المخالبة الواقع نحو 17 كم غربي رمادة بالجنوب التونسي. شارك فيها التونسيون والطوارق في 10 جويلية 1915م، حيث كثر المجاهدون في ليبيا بعد كثرة المجاعات، وانقطاع الأطعمة. ولم تستطع القيادة الموازنة بين الجانب العسكري والاقتصادي، وأصبحت الغارات على مراكز الجيوش الفرنسية لاختطاف ما هو موجود من طعام وحيوان داخلها. وقد هاجر حي المخالبة بأجمعه لليبيا تاركا بساتينه المسماة بالفسور المتناثرة حول قرية "ماطوس". وكان في هذه البساتين كثير من التين الذي حان نضجه، فخرج إليه مجموعة من المجاهدين تتألف من 15 رجلا، في مقدمتهم سعد بن محمد بوزيب المخلي وعمر غول المرزوقي... وأخذوا يجمعون التين ويخزنونه في مخابئ داخل الجبل، فعثرت عليهم دورية من 20 فارسا من أعوان الصبايحية، وتبادل الطرفان النار، ورجع الأعوان الفرنسيون لمراكزهم دون أن يفتحوا مكان المجاهدين. حيث أصبح المكان آمنا لأيام قبل أن تحاصرهم القوات الفرنسية من جهة ذهبية، وخيمت على بعد 7 كم عن المركز. كما قدمت قوات أخرى من جهة أم صويغ ومن جهة رمادة، فاشتبكت

¹ مصباح بريش: (1887-1925) من قرية بني غلوف قرية حامة قابس بتونس. كان يمتاز باستطاعته العمل بالسياسة والعمل العسكري في نفس الوقت، شارك في الجهاد ضد الإيطاليين في ليبيا سنة 1911. كان محدثا بارعا، تمكن ببراعته أن يتصل بالقادة المغاربة في الأسبانية، وقد بعثته تركيا للقبائل التونسية وقادتها لكي تأخذ منهم الموافقة في القيام بالثورة بعد أن ترسل لهم تركيا السلاح عن طريق البحر. وقد وافقت القبائل على الثورة، لكن سرعان ما تفتنت فرنسا للأمر، واعتقلت قادة القبائل وسجنتهم. والتجأ مصباح مع الثائر الدغباجي، فقاتل معه من سنة 1915 لغاية 1918. ولما اشتدت مطاردة فرنسا لليبيين، التجأ مجددا لليبيين، وجاهد مع قادة المقاومة هناك ضد الوجود الإيطالي مثل: محمد سوف وخليفة بن عسكر بعد اندلاع الثورة في سنة 1922. وقد كان من المتقدمين للصفوف. وأمام ضغط الجيش الإيطالي في عملية استرجاع الأراضي الليبية، التجأ إلى صحراء فزان. وقد ظلت تلاحقه القوات الإيطالية حتى استشهد عطشا وهو فار لمصر سنة 1925. انظر محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص، 330-331.

² نفسه 313-316.

مع المجاهدين الذين كان عددهم 12 في معركة دامت 4 ساعات، وتخلصوا من الحصار المطبق ليلتقوا بالنجدة. وبعد رجوعهم، وجدوا القوات الفرنسية قد تفرقت، فاستوطن المجاهدون "ماطوس"¹. لكن يجهلون حجم الخسائر التي تكبدتها فرنسا في هذه المعركة. وهكذا تطورت الأمور بشعبوية بالنسبة للثورة داخل تونس أو حتى من ليبيا نحو تونس، بحكم أنه يغلب عليها جانب الانتقام. ففي الوقت الذي يقوم به مصباح برييش باتصالات سرية مع القبائل التونسية والنخب الوطنية من أجل الثورة، كان هناك قائد ليبي يدعى خليفة بن عساكر النالوتي، اتصل بقبيلة المخالبة لما فر من محتشد "قبلي" بتونس، والتمس منهم أن يعينوه في الجهاد ضد الاحتلال الإيطالي في ليبيا، فخرج معهم شباب كثير من الجنوب التونسي². وشرع يقوم بغارات على مراكز تونسية من أجل الاستيلاء عليها كي يوطد مركزه من جهتي زوارة وطرابلس، وليقطع الأمل على الطليان في استرجاع ما استولى عليه من الأراضي الغربية. وحاولت فرنسا الاستيلاء على وزان لكن بدون جدوى. ولكي يقطع على فرنسا محاولاتها تلك، قرر شغلها بحرب عصابات متكونة من مجاهدين تونسيين وجزائريين، وفي نفس الوقت يريد الانتقام من فرنسا التي أسرت جماعات من الحوامد وأولاد محمود على أثر غارات شنتها في التراب الليبي بحجة حق تتبع العصاة. وقرر هو شن حرب عصابات متفرقة خاطفة، لا يتجاوز أفراد المجموعة الواحدة خمسة أشخاص. وهكذا أقلقت الغارات المتتالية السلطة، وأحدثت ارتباكاً كبيراً في ولايات: مدين وقابس وقفصة حتى كادت التجارة أن تنقطع عن الأسواق بسبب تلك الغارات لأن القوافل التجارية والبريد لم تتمتع من الغارات. فردت فرنسا بالمثل في التراب الليبي بتكوين مرتزقة من القبائل الليبية والتونسية والجزائرية، وتنطلق بغارات من التراب الجزائري والتراب التونسي. وأصبحت تشن غارات على مراكز المجاهدين في التراب الليبي، وتستعمل سياسة النهب والسرقة للقوافل أيضاً. واستهدفت العصابات التي تخرج من الجزائر مدن غدامس ودرج وسانون، وقامت معركة في 18 أبريل 1918م في منطقة "الأحرش" الجزائرية قرب الحدود الليبية الجزائرية.

وظلت حرب العصابات التي دخل فيها الجانب القبلي سنوات 1916م، 1917م، 1918م، مما اضطر فرنسا للتفاوض مع خليفة بن عساكر رسمياً على أن تسلمه جميع ما لديها من أسرى ليبيين، وأن تتوقف الإغارات من جميع الحدود الليبية التونسية أو الحدود الليبية الجزائرية. فقبل بن عساكر توقيف الإغارات من جهته، لكنه مع ذلك رفض أي وعد لفرنسا بمنع أي من الجزائريين والتوارق المهاجرين من الإغارة، وأنه لا سلطة له عليهم ولو كانوا في أرضه³.

من جهة أخرى نجد شخصية جزائرية شاركت في الثورة التونسية مرغمة، وهو محمد بن سعد المقراني. وقد وفد على تونس مع القوات الفرنسية المكلفة بالحماية سنة 1881م، وكان عمره حينها بين 20 و25 سنة، ولزم مراكز الحدود بالجنوب التونسي، وتزوج من بن قردان، وتدرج في الوظائف المخزنية. وعند اندلاع الثورة في 1915م، كان رئيساً لمركز "مشهد" العسكري قرب "الذهبية". وبمجرد تأهب القبائل العربية بالجنوب للثورة، قدم للمركز جماعة من المجاهدين حوالي سبتمبر 1915م، وعقدوا اجتماعاً مع الباش شاوش وجماعته، وأسفر هذا الاجتماع على انضمام هذه القوة للمجاهدين. وكان محمد هو قائد المركز ومخلصاً لفرنسا، فلم يقبل في الأول الانضمام للثورة إلا بعد أن هدده الثوار بقتله والاستحواذ على حريمه وأرزاقه. وكان صاحب ثروة هائلة من إبل وغنم، لكن هذا التردد لم يدم طويلاً،

¹ محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص 75-76.

² محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص 39.

³ المرزوقي، المرجع السابق، ص 89-91.

فانضم للثورة بقوة وحماس، ونقل أهله وما كسب لليبيا. وهاجم مع الثوار ذهية في أيام 17 و 18 و 23 سبتمبر 1915م. واستمر مع المجاهدين يخوض أغلب المعارك التي وقعت في الحدود. ولما وقع الصلح بين الإيطاليين والليبيين سنة 1919م، تنقل إلى القرى الليبية الغربية، بعدما خسر جميع ثروته. وهناك أمر زوجته بالذهاب لأهلها، فطلبت منه الطلاق ورجعت إلى أهلها بن قردان. وقد شوهد في آخر عمره في شوارع طرابلس يمد يده سائلا إلى أن توفي معدما¹. واستطاعت جيوش الحماية الفرنسية إخماد هذه الثورة للعديد من الأسباب منها ما هو قبلي وعدم توحيدها في الهدف، أو من ناحية إخلال دول المحور خاصة ألمانيا بالتزاماتها من أجل مد الثورة بالسلاح، أو من ناحية قبول قادة الثورة في ليبيا بالاتفاق مع الإيطاليين على حساب غيرهم من بلدان شمال إفريقيا. وقد ذهب شعار "جمهورية شمال إفريقيا" أدرج الرياح.

وقد ظل الكفاح المشترك بعد ذلك مع خليفة بن عساكر الذي التحق به "الدغباجي" وقاما بمعارك ضد الفرنسيين داخل تونس إلى أن قبض على بن عساكر في ماي 1922م من طرف الجنرال "قرازياني"، وألقي القبض على المقاوم "الدغباجي" معه وسلمته إيطاليا لفرنسا التي كانت قد أصدرت في حقه حكما غيابيا بالإعدام في 27 أبريل 1921. وقد أدخل السجن العسكري بتونس لتعاد محاكمته، وتم تأييد الحكم الأول لينفذ فيه حكم الإعدام بساحة سوق الحامة يوم 1 مارس 1924². ومما اشتهر على "الدغباجي" بقصة "الخمسمة الذين لحقوه على أثر الجرة". وهي ملحمة لا زال الشعر الشعبي التونسي والجزائري يرددونها، وهي واقعة "الجلبانية". فبعد أن قام بمعركة بمنطقة "المغذية"، لحقه عشرة فرسان من الفرنسيين، فقتل منهم خمسة وفر الباقون. لذلك رفع من شأنه في هذه الواقعة. وتزوج في طرابلس زوجة ثانية³ رفعة لما قام به من بطولة. وكانت بنديته هدية من "وادي سوف" الجزائرية. ويذكر الشعر الملحون التونسي هذه البندقية. فقيما يحفظه أهل سوف أن هنالك جماعة يقال لهم "الحمازة" في تونس. فكل حادث نضالي يقع، يجازون من ينظم قصيدة في مدح عمل بطولي فيعطونه المال. وكذلك إن كان عملا غير مقبول في المجتمع. فكل من يقوم بنظم هجائي، يعطونه المال كذلك. فكانت هذه القصيدة على "الدغباجي" بعد أن قتل الفرسان الفرنسيين. حيث تقول القصيدة:

القصة اللي صارت ما اكبرها وما نقد نتقيها
وشادت في لوطان خبرها والكل سمعنا بيهها
ماك تقاتل وتقاتلني يا كذا اللي شوف
وعند ملك الموت بطني لا يسخف لا يروف
غير هز الماتاده مني مهدية من "سوف"
وضرب المستيكة يا حني للجبهة يعطيها
وطباعة في يد المتمني ولي من باله يقولها

¹ نفسه، ص ص، 274-275.

² المرزوقي، المرجع السابق، ص ص، 272-273.

³ نفسه، ص، 272.

القصة التي صارت ما اكبرها وما نقد نتقيها¹

ومن بين الجزائريين الذين كانوا مع الدغباجي: لحلو القطاوي وسليمان الشعبي من وادي سوف، والأخوان أبناء القائد إبراهيم الشعبي الذين تحالفوا مع الثائر التونسي الدغباجي، واستمروا في مقاومة الجيشين الإيطالي والفرنسي على الحدود حتى فجر الحرب العالمية الثانية² لتنتقل بعد ذلك موجة جديدة ومرحلة أخرى من الكفاح المشترك، خاصة بين التونسيين والجزائريين بدأ مع ثورة "المازيق". حيث تشير التقارير الفرنسية إلى أن الانتفاضة التي عرفتها منطقة نفزاوة خلال سنتي 1943م و 1944م، قد شهدت مشاركة بعض العناصر الجزائرية والليبية. وتشير التقارير أيضا بخصوص الجالية الجزائرية إلى أن قبيلة "الربيع" بوادي سوف كانت تتمتعن حرفة رعي الإبل بمنطقة نفزاوة، ولم تتردد مطلقا في معاضدة إخوانهم "المازيق" إبان انتفاضتهم³.

ففي مراسلة بتاريخ 27 نوفمبر 1943م بعث بها المقدم "نبال" Nabal القائد العسكري لتراب توقرت جنوب الجزائر إلى قائد الفيلق التاسع عشر بالجزائر، حيث يلفت فيه النظر "... إلى خطورة الوضع نتيجة الموقف العدائي للمتمردين التونسيين. فقد تعرض الملازم "دوتي" De Thé بمنطقة بئر عوين لهجوم من أهالي تونسيين مدججين بالسلاح، وقد أعلم بذلك سلطات غدامس وقابس من أجل القبض على المتمردين حسب قوله. وفي يوم 19 نوفمبر تتصل السلط البريطانية من أجل إيقاف متمردين ومحاصرتهم بالعرق الشرقي بين الحدود التونسية الجزائرية. وقد علم بواسطة نقيب يسمى "ديبو دو" أن أحد الأهالي التونسيين جاء لجهة الواد بالجزائر بغرض تجنيد عناصر من الربيع لتعزيز فريق المتمردين. ". وتشير المراسلة إلى أن الفلاحة، كما تسميهم الدوائر الفرنسية، أكثرها من الكمائن والتنقل وتجنيب الجزائريين معهم. وفي هذه المراسلة يتضح لفرنسا أن الأمور مفاجئة لها، خاصة مما يذكر التقرير "أن المتمردين اتخذوا موقفا عدائيا تجاه السلطة من خلال مهاجمة الملازم في 13 من الشهر". وقد كانت الرقعة الجغرافية التي تحوم حولها الأحداث واقعة بين غدامس في ليبيا، والصحراء الجنوبية بتونس، وصحراء وادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري⁴. وفي 24 جويلية 1944 في برقية رقم 440 مصدرها الجنرال "ماست" Mast للشؤون الخارجية الفرنسية الذي يتحدث عن مخلفات معركة وقعت في 6 جويلية، مذكرا إياه ببرقيته رقم 406.. أن خسائر المتمردين 24 فردا منها 23 قتلوا مباشرة وتم أسر 3 وأن العمليات لا زالت جارية في تحطيم مجموعة أخرى في شمال غربي برج الباف.. إلى أن يقول وأمام احتياطات قواتنا الملاحقة، انكفأت المجموعة نحو العرق. ويوم 15 تمت مطاردة زمرة من 10 رجال جنوب شط الجريد في اتجاه الحدود الجزائرية. ولم ينج من هذه المجموعة إلا ثلاثة من المتمردين من أصل جزائري فروا إلى الجزائر. وقد أعلمت السلط بتقررت باتجاه هؤلاء اللصوص الثلاثة وبهويتهم⁵.

¹ بالهادي عبد القادر: الساكن ببلدية دوار الماء ولاية الوادي في شهادة شفوية وسرد القصيدة كما حفظها في المتوارث من الشعر الملحون الشعبي، تاريخ الشهادة في 7 نوفمبر 2021 بجي أولاد أحمد بلدية الوادي على الساعة 14:30.

² قمعون عاشوري، المرجع السابق، 61

³ موقع الناقد: <http://annaqued3.blogspot.com/2008/05> تاريخ التصفح: 2021/8/7.

⁴ عميرة علي الصغير، عدنان لمنصر: المقاومة المسلحة في تونس (1939-1956). ج2، تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 2005، ص ص 42-43.

⁵ نفسه، ص 45.

وفي مراسلة أخرى لنفس الجنرال بتاريخ 18 أوت 1944 ببرقية رقم: 476 أشارت إلى تفاصيل القضاء على مجموعة من الثوار بجهة توزر. لكن ما يهمنا ما قاله: "... لقد كان هذا الالتحام بينما كان الأتباع يبيحثون على المتمردين في الجهة الواقعة شمال شط الجريد. حيث تم اللقاء مع مجموعة حمد بن عبيد، بينما كانت تحاول الانضمام لمجموعة أخرى يقودها الغول. ويمكن اعتبار مجموعة حمد بن عبيد قد صفيت، بينما تمكنت مجموعة الغول من الإفلات. ويبدو أنها توجهت نحو الجزائر مستغلة مسارب شمال شط الغرسة. وتضم المجموعة أقل من 10 رجال ثلاثة منهم فقط خطرون وهم بالذات الثلاثة الآخرون من العصابة التي شاركت في الهجوم على دوز. إن أتباعنا يواصلون الملاحقة، وقد أخطر قائد دائرة الواد بالجزائر بذلك¹. وهكذا استطاعت فرنسا أن تخدم " ثورة المرازيق"، خاصة بعد انتصارها مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. وتنتهي مرحلة من الكفاح المشترك المغاربي عامة، والتونسي الجزائري بصفة خاصة.

ج- المشاركة الجزائرية في ثورة التحرير التونسية 1952-1954

دقت فرنسا ناقوس الخطر بعد الحرب العالمية الثانية من خلال تنكرها لاستقلال مستعمراتها، مستعملة سياسة الحديد والنار مثل: مجازر 8 ماي 1945م. مما جعل الجزائريين يفكرون بجدية في التحضير لثورتهم. وقد استعمل الجزائريون السلاح دفاعا عن أنفسهم منذ تلك المجازر. وأصبحت تونس ممرا للسلاح حينها، خاصة بعد تكوين المنظمة الخاصة لحزب الشعب الجزائري سنة 1947م، حيث ذكر تقرير النقيب "مورو بيار" MOREAU PIERRE المؤرخ في سنة 1948م أنه بعد حديثه عن الخط الرابط بين القاهرة وليبيا في التهريب، تحدث عن الجنوب التونسي لغاية وصول السلاح للجزائر بقوله "... وأخيرا المسلك الذي يشق الجنوب التونسي في شكل وشاح، إنه طريق السلاح المار بنالوت -ذهبية- القلعة (قرب دوز). حيث يتزود خطا حامة قابس وحوايا مدنين، وحسب الطلب يقصد المهريون الواد أو تبسة بالجزائر.... على كل هذه المحاور، وخاصة في دائرة نالوت -الذهبية- دوز تقع عمليات تهريب الأسلحة، إنه لشيء خطير. لقد تبين أن متمردي ماي 1945م بجهة قسنطينة قد تزودوا بالأسلحة من ساحات المعارك بتونس. إذ كان ذلك هينا نظرا لكمية الأسلحة المتروكة"².

هذه الفعالية في جلب السلاح كما سنها لاحقا جعلت الجزائريين يلتحقون بالثورة التونسية من بدايتها في جانفي 1952م. فقد كان الجزائريون كالعادة من أوائل الثائرين مع إخوانهم التوانسة. ففي شهادة للمقاوم عبد القادر زروق (سليانة)، حيث يتحدث عن بدايات الثورة ومن جندوا لها والاجتماعات التي كانت قد قامت قبل الموعد، حيث يذكر "... وكنا قد كونا في سليانة عصابة أخرى من الجزائريين، فكانت هناك عدة كتائب للثوار... إلى أن يقول: قبل أن أعقل، اتصلت بأولئك الجزائريين من منطقة الزعاريير، وكلفت أحدهم ويدعى حمودة، وهو ضابط سابق في الجيش الفرنسي، بتكوين كتيبة عسكرية من الجزائريين يكون ميدان عملها جهة سليانة لا جهة برقو"³. فهذه الشهادة وغيرها من الوثائق توضح أن الجزائريين والتونسيين أصبحوا هما واحدا وقضية واحدة، كأن ما يقع في تونس هو شأن جزائري. بحيث اتخذ المجاهدون التونسيون من الأراضي الجزائرية المجاورة في كل من تبسة وسوق أهراس ووادي سوف مراكز

¹ عميرة علية الصغير، عدنان لمنصر، المرجع السابق، ص 46.

² نفسه، ص 32.

³ عميرة علية الصغير، عدنان لمنصر، المرجع السابق، ص 106.

خلفية للثورة التونسية، واتخذوا من جبال النمامشة وجبال الدير وسيدي أحمد مراكز للراحة ولتحضير العمليات العسكرية ضد القوات الفرنسية. كما كانت فرق " الفلاقة" التونسية تجوب القرى والمداشر الجزائرية طوال سنة 1953م وبداية 1954م لجمع واقتناء الأسلحة والذخيرة، معتمدة في ذلك على بعض الجزائريين ممن لهم معرفة ودراية بمناطقهم. وكانت تقوم بتسليمهم نظير الأسلحة التي يقدمونها وصولات تحمل شعار الحزب الحر الدستوري التونسي. وقد انخرط عدد كبير من سكان المناطق الحدودية الشرقية في كل من تبسة وسوق أهراس ووادي سوف في صفوف الثورة التونسية¹. وفي شهادة شفوية للمجاهد التونسي عبد الوهاب السندي ما يعضد ذلك، حيث يقول "... فأخبرنا لزهري الشرايطي أن الحزب يقول يجب أن يدخل المقاومون الجزائر لتوسيع المعركة. وقد تطوعت مع فريقي كما تطوع القادة الشيخ علي بوترعة وأحمد بن سعد وعبد الله بوساحة بفرقهم، ودخلنا الفرق الثلاث للجزائر، وبقينا هناك حوالي شهر نبث الدعاية الوطنية، ونحس الناس كثيرا للمقاومة في جهة النمامشة وتبسة..."².

ومما يعضد هذه الشهادة من الجانب الجزائري، ما ذكره الوردي قتال في مذكراته حيث يقول: "... وقد سمعت بالتحاق الكثير من أبناء المنطقة (هو يقصد منطقته تبسة) بالثورة الفلسطينية، وبدأ بعضهم يجمع السلاح لمساندة الثوار التونسيين ويحضر للالتحاق بها. ولم أكن أدري أن والدي كان في مقدمة من جمعوا السلاح وأرسلوه إلى الثوار التونسيين. فقد ساهم والدي بالتبرع للثورة التونسية بأسلحة حربية كان أخوأي يملكها، وهي سلاح حربي نوع خماسي ألماني كان يملكه أخي علي، وسلاح حربي نوع سبوعي أمريكي كان يملكه أخي عمارة، وسلاح حربي من نوع ستاتي إيطالي يملكه خالي عمار، ومسدس كان يملكه السيد حمه بن قاسم، وسلاح حربي نوع ستاتي إيطالي يملكه السيد لخضر بوزيان، وسلاح حربي نوع ستاتي إيطالي كان يملكه عجال عبد الله، بالإضافة إلى المساهمة المادية والعينية والهبات بمختلف أشكالها. وقد كلف والدي بهذا العمل السيد بورقعة بوزيان مدعما بشخص يطلق عليه اسم لعبيدي. حيث يقومون بجمع التبرعات والهبات، حتى زكاة المحصول، وبعض الأنعام يتولى بيعها وجمع أموالها. وكانت منطقة نشاطهم متمركزة في (وادي لعلق)، وكانت العلاقة قوية بين قادة المقاومة التونسية والشعب الجزائري. إذ كان القائد التونسي الساسي لسود يقوم بجولات تحسيس بين سكان المنطقة لدعم الثورة التونسية وطلب الدعم الجزائري لها، خاصة وأن كثيرا من أبناء المنطقة كانوا مجاهدين إلى جانب إخوانهم التونسيين، نذكر منهم: القائد الشهيد لزهري شريط. كما قام الساسي لسود بجولات دورية لتحصيل ما تم جمعه من طرف السيد بورقعة بوزيان³. وقد شاركت مجموعة من الجزائريين في المقاومة التونسية بداية من سنة 1951 إيماناً منهم بوحدة الكفاح ومصير المنطقة الواحدة. ونذكر منهم هنا على سبيل المثال: القائد الجليلاني بن عمر والطالب العربي قمودي والقائد عبد الكريم هالي والقائد سعيد عبد الحي، والعربي فرجاني

¹ فريد نصر الله : التطورات السياسية والعسكرية بالناحية الشرقية للمنطقة الأولى (الأوراس) بين 1954 – 1955، مذكرة لنيل شهادة

الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ص 103.

² عميرة علي الصغير، عدنان لمنصر، المرجع نفسه، ص ص 113-114.

³ الوردي قتال عراسة : مذكرات الوردي قتال عراسة، ط1، دار كنوز للنشر والإشهار، الجزائر، 2012، ص ص 41-42.

وعلي زوازية ومحمد بن عمر وعمارة موساوي وعبد القادر عاشور وخزاني دردوري وكيلاي الأرقط والعيد بركة وأحمد مصطفى تواتي والهادي بوعزيز والعربي العابد وفرحات الصغير زكور¹.

ومن الرجال الذين التحقوا بالثورة التونسية ثم أصبحوا قادة في الثورة الجزائرية، منهم مثلاً: الشهيد الجيلاني بن عمر الذي التحق بالثورة التونسية في بدايتها، وبحكم أنه كان مجندا بالجيش الفرنسي في ثكنة "رمادة" في تونس²، وقد تمرد على أحد قادته لأنه رأى بعينه الظلم على الشعب مع بداية الثورة التونسية، فأظهر عداوته لقادته في الجيش الفرنسي إلى درجة التناوش معهم، وقام بلطم أحدهم³ بأن ضربه برأسه⁴، فاتهم بالتمرد على أنه "فلاق" فزج به في السجن لمدة ثم تم طرده⁵ من العسكر في أواخر 1952م. وقد كان محبوبا في الجنوب التونسي، فقد تواصل به أصدقاؤه لماعلموا أنه مقدم ويكره فرنسا، فالتقى بالأخضر بن عمر في بيت أحد المناضلين حسن جديد ببلدية البيضاء حاليا ولاية الوادي، وخطب في بعض أصدقائه، ولخص المجاهد لخضر عياط خطابه قائلا "تونس ثارت فمتى ثور نحن ؟ يجب عدم الانتظار أكثر، أم نحن أقل شجاعة ؟ يمكننا إعلان الثورة ولو بعدد قليل من المجاهدين، وستكبر بعد ذلك وتتوسع شيئا فشيئا". وقد توجس لخضر عياط من خطاب الجيلاني فقال له: على رسلك! فنحن ننتمي للتنظيم السري لحزب الشعب الجزائري، ولا نستطيع أن نقوم بأي عمل منفرد. وهنا اتفقنا معه على التحاقه بالثورة التونسية بتونس، ويكون في منطقة "رديف" التونسية التي هي قريبة من الحدود الجزائرية هناك، لكي تكون نقطة فاصلة بين القطرين التونسي والجزائري⁶. فخرج متخفيا من الوادي مع ابن عمته عروة عبد القادر بعد أن موه مدة من الزمن في العمل مع ابن عمه خزاني بن عمر في جني التمور، ثم التحق بالجال في رديف، ووجد هناك المولدي هزلة وبركة العيد وخوازم إبراهيم بن لبيض وبن علي المكي، وكل هؤلاء من وادي سوف⁷. وشارك في العديد المعارك، واستطاع أن يجلب السلاح من ثكنته القديمة ب"رمادة" لعلاقاته القديمة، وجعل خلية سرية تأتية بالسلاح سرقة من المخازن هناك⁸. وأغلب المعارك التي

¹ محمد بلقاسم : وحدة المغرب العربي فكرة وواقعا، واقع فكرة الوحدة 1954-1975، ط1، البصائر الجديدة، الجزائر، 2013، ص 199-200.

² شهادة شفوية أجريتها مع العيد بن عمر، أخ الشهيد الجيلاني بن عمر بمنزله في حي باب الوادي بلدية الوادي تاريخ المقابلة 12 مارس 2020 من الساعة 18 مساء إلى 20 مساء.

³ بسر عبد الحميد، الأجداد من أبناء سوف، ج1، سامي للطباعة، الوادي، 2019، ص 66.

⁴ العيد بن عمر، الشهادة الشفوية السابقة.

⁵ بسر عبد الحميد، المرجع السابق، ص 66.

⁶ صباح مسعودي : التواصل الاقتصادي بين منطقة الجنوب والشرق الجزائري وتونس خلال النصف الأول من القرن العشرين (1900-1954)، رسالة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة حمه لخضر بالوادي، 2013-2014، ص12.

⁷ مريم طريلي، مفيدة بن عبد الله : الجيلاني بن عمر ودوره في الثورة التحريرية 1954-1956 ، رسالة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة حمه لخضر بالوادي، 2016-2017، ص، ص 41-44.

⁸ شهادة شفوية مع العيد بن عمر السابقة.

خاضها الجيلاني بن عمر بجبال عربات قرب مدينة قفصة التونسية تحت قيادة الساسي لسود إلى أن قامت الثورة الجزائرية في فاتح نوفمبر 1954.¹

بينما تذكر رواية أخرى أنه ربط الاتصال بالطاهر الأسود لا بالساسي لسود، ومع المناضل التونسي علي بوترعة. وكان أول مكان التقى به المجاهدون التونسيون في بالرشيم.² كذلك من المجاهدين عبد المالك قريد المعروف حركيا "الجنة"، وأيضا قادة الثورة الجزائرية أيضا نجد الشهيد الطالب العربي قمودي الذي شارك من البداية في الثورة التونسية لما كان نقابيا في معمل الفوسفات بـ"رديف" التي كونت خلايا سرية تابعة للمقاومة المسلحة، حينها كان الطالب العربي من مؤسسيها، وكان ذلك خلال السنوات 1952/1953. ينشطون تحت قيادة الطاهر لسود ومساعديه مسعود الركروكي وحسونة العلابلي في نواحي مدينة قفصة.³ ومن القادة الذين شاركوا قبل في فلسطين⁴، ثم لما اندلعت الثورة التونسية، انضموا لها من بدايتها، نجد: القائد لزهري شريط الذي أصبح معروفا حتى بعد اندلاع الثورة الجزائرية لدى السلطات التونسية⁵ ومعه من شارك في جهاد فلسطين وهم: الحاج صالح صفصاف والعربي جنة وابن طيبة لحسن والحاج زرفاوي⁶، وأغلبهم رجعوا بأسلحتهم للجزائر منضوين تحت قائدهم لزهري شريط بعد اندلاع الثورة الجزائرية ومن هؤلاء: بالقاسم قبي، محمد بن عبد الرحمان، علي بن زايد، لعبيدي ثابت، ساعي فرحي، محمد بن عبد العزيز حميدة، الأمين دربال، والعربي بوزيان.⁷

من جهة أخرى نجد التونسيين الذين شاركوا في الثورة التونسية، ثم انتقلوا للثورة الجزائرية مباشرة دون أن يسلموا سلاحهم لبورقية. وبعد استقلال الجزائر، أخذوا الجنسية الجزائرية، واستقروا نهائيا في الجزائر منهم: بكار الركروكي⁸ الجزائري المولد الذي لا يعلم بالضبط زمن التحاقه بالثورة التونسية، لكنه خاض معارك مثل معركة جبل "سي عيش" في 21 أكتوبر 1954م. وقد كان شاهدا أيضا على تمرد أربعة جزائريين من ثكنات فرنسية داخل تونس، منهم من يتذكر اسمه يقال له عبد الله حملاوي، من جنوب العاصمة الجزائرية. وقد هرب مع مجموعته من قفصة لجبل "عريان". وقبل انتقالهم، كانوا في حماية الشعب التونسي. وقد خافوا أن يعتبروا جواسيس لشدة بياض بشرتهم، ولكونهم يغلب عليهم التكلم بالفرنسية. لكن القائد التونسي لزهري الشرايطي الذي كان الركروكي تحت إمرته، طلب من الشعب أن

¹ بسر عبد الحميد، المرجع السابق، ص، ص 66-67.

² جيلاني حسان : قصة العودة، مذكرات عائد إلى الرديف تونس إلى وادي سوف الجزائر في طائفة الإستقلال، ج1، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2011، ص 57.

³ بسر عبد الحميد المرجع نفسه، ص 72.

⁴ محمد زروال : اللامامشة في الثورة، دار هومة، الجزائر، 2003، ص، ص 64-68.

⁵ عثمان سعدي : مذكرات الرائد عثمان سعدي بن الحاج، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2000، ص 138.

⁶ محمد زروال، المرجع السابق، ص 67.

⁷ نفسه، ص 66.

⁸ بكار بن محمد بن بلقاسم الركروكي ومسعودة بنت محمد. ولد عام 1937، وانضم سنة 1953 للثورة التونسية. ولما اندلعت الثورة التحريرية في الجزائر، التحق بجيش التحرير الوطني بقيادة الجيلاني بن عمر، ثم مع الطالب العربي. وأصيب بجروح نقل للعلاج بالإدارة الثورية بتونس العاصمة. تنقل بعدها لعدة جهات عبر الحدود أو داخل الوطن لغاية الاستقلال. ثم اختار الحياة المدنية. انظر: شهادة شفوية في بيته أقمتهام معه في حي الشهداء ببلدية الوادي يوم 6 مارس 2018 من الساعة 17 إلى الساعة 18 مساء.

يتركوهم يصلون إليه. فلما وصلوا، حضروا معهم معركتين: معركة "سي عيش" ومعركة "القطار" التي كانت آخر معارك الثورة التونسية التي استشهد فيها جزائريان من مدينة وادي سوف، واحد اسمه "عبد القادر" والآخر "علي الشايب" والاثنتان من قبيلة الربايح. وقد كثر تمرد الجزائريين بعد قصة الأربعة، حيث وصل إليهم اثنان آخران سمر الوجوه، يكثر من قول "واه"، وهي دلالة على أنهم من الغرب الجزائري. وقد ذكروا لهم أنهم تمردوا في 40 فردا تفرقوا في الجبال¹. ولقد مرت الثورة التونسية بامتحان عسير بعد أن اتفق بورقيبة سرا مع المحتل الفرنسي على الاستقلال الذاتي الذي خالف به العهد المتفق عليه في مكتب تحرير المغرب العربي مع كل قادة المغرب العربي من أن لا تفاوض مع فرنسا على الاستقلال إلا في إطار موحد. ف وقعت فتنة تونسية داخلية بين من سلم سلاحه ومن بقي رافضا لتسليم السلاح. وقد كان الجزائريون المشاركون في الثورة التونسية من الرافضين للنزول من الجبال ويذكر المجاهد محمد الصالح نصير أن "... من الرافضين للنزول من مجاهدين الجزائريين عبد المالك الجنة، ومنهم مسعود لعبيدي"²، بالإضافة إلى عمر حليلات الذي يذكر "أنه تم تسليم مبلغ 10 دنانير تونسية لكل من سلم سلاحه. لكنه رفض المبلغ لأنه خرج مجاهدا في سبيل الله وليس لاستلام المال". وذكر عبد المالك الجنة أن "المجاهد علي بوترعة طلب منهم تسليم أسلحتهم، ومنح كل واحد عشرة دنانير، وشهادة تدعى زورا أنهم تونسيون من عرش الهمامة، لكي لا تتبعهم السلطات الفرنسية..."³.

تشير الوثائق الأرشيفية الفرنسية في مراسلة رسمية مؤرخة في 28 جوان 1954 موجهة إلى قيادة الدرك الفرنسي بسرية قسنطينة فرع سوق أهراس إلى: "وقوع كمين في 26 جوان 1954 عند الساعة الخامسة مساء بممر تنوكلة على طريق بئر العاتر - تبسة، إستهدف ثلاثة دركيين، فرنسيين"⁴، وفي سياق متصل، سلطت التقارير الصحفية الدولية خاصة السويسرية الضوء تحدثت على تحركات المجاهدين الجزائريين المدعومين من القاهرة حيث أوردت صحيفة Gazette de Lausanne في تقرير لها: "تكشف الوقائع عن تسلل وحدات كوماندوس فرق كوماندوس من تونس إلى الجزائر قبيل اندلاع الاضطرابات:

في النصف الأول من شهر أكتوبر، تم الإبلاغ عن وجود فلاة في منطقة سوق أهراس، حيث نفذوا ثلاث هجمات، وقاموا بعمليات اختطاف، ونهب، في نفس الفترة، وقعت حوادث مماثلة قرب تبسة وتمرقه.

في 25 أكتوبر، وُجدت مجموعات من الفلاة في لامي، وكليرفونتين، وتمرصة.

في 27 أكتوبر، وقعت اشتباكات شمال شرق سوق أهراس، وتسلمت مجموعات من الفلاة نحو جبال الأوراس، حيث تجري العمليات حاليا. في 29 و30 أكتوبر، اندلعت حوادث عديدة على تخوم سلسلة جبال النمامشة، التي تُعد امتدادا لجبال الأوراس نحو الشرق.

¹ بوبكر ركوكي : شهادة شفوية، حوار مع 6 مارس 2018، بمنزله بحي الشهداء ببلدية الوادي، الساعة 17 إلى الساعة 18.

² محمد الصالح نصير : شهادة شفوية، أرشيف إذاعة سوف، تاريخ السماع 17 جانفي 2020، الساعة 10.

³ مريم طربلي وآخرون، المرجع السابق، ص 46-47.

⁴ A. N. O. M., carton 9886/63, G. G. A, RAPPORT du Lieutenant BOISSON, Commandant la Section de Cendarmerie de Souk-Ahras, sur l'activité des fellaghas en territoire frontalier algéro-tunisien

وأخيراً، في 1 نوفمبر، تم إطلاق الهجوم العام. تُظهر هذه الوقائع أن حرب العصابات الجزائرية لا يجب اعتبارها تمرّدًا بسيطًا، بل واحدة من حلقات الحرب — والأخطر حتى الآن — التي يشنها المتطرفون في شمال إفريقيا ضد فرنسا، بدعم من القاهرة¹

خاتمة :

يُبرز هذا البحث كيف تحوّلت الهجرة الجزائرية إلى تونس من مجرد رد فعل على القمع والاضطهاد الاستعماري إلى ظاهرة تاريخية وسياسية عميقة الأثر، شكّلت نموذجًا فريدًا للتضامن المغربي. فقد أثبتت الدراسة أن هذه الهجرة لم تكن هروبًا من الواقع، بل كانت انتقالًا نحو فضاء أوسع للكفاح، حيث اندمجت معاناة الشعب الجزائري بنضال إخوانه التونسيين في بوتقة واحدة.

لقد كشف **المبحث الأول** أن الدوافع وراء هذه الهجرة كانت متشابكة، تجمع بين القرب الجغرافي والوشائج التاريخية من جهة، والسياسات الفرنسية القاسية المتمثلة في مصادرة الأراضي والإفقار والتجويع من جهة أخرى. مما جعل تونس ملاذًا طبيعيًا ومكانًا للالتقاء والتخطيط.

أما **المبحث الثاني**، فقد أظهر بجلاء أن الجالية الجزائرية لم تكن عنصرًا سلبيًا في المجتمع التونسي، بل كانت شريكًا نضاليًا فاعلاً. من ثورة الفراشيش سنة 1906، مرورًا بالحلم الوندوي "جمهورية شمال إفريقيا المتحدة"، ووصولاً إلى المشاركة الفعلية في الثورة التونسية المسلحة (1952-1954)، كان الجزائريون حاضرين في الميدان بالسلاح والفكر، مما يؤكد أن قضية التحرير كانت قضية مصير مشترك.

وختامًا، يمكن القول إن الهجرة الجزائرية إلى تونس خلال الحقبة الاستعمارية لم تكن مجرد فصل من فصول المعاناة، بل كانت صفحة مشرقة من صفحات النضال المتعدد الجبهات. لقد نسجت هذه المرحلة علاقة أخوة مصيرية بين البلدين، أثرت لاحقًا عن دعم تونس اللامشروط للثورة الجزائرية الكبرى (1954-1962). وهكذا، تظل هذه الصفحة من التاريخ شاهدًا حيًا على أن وحدة الدم والنضال أقوى من كل حدود مصطنعة، وأن المصير المشترك للأمم هو أقوى سلاح في مواجهة المستعمر.

¹Gazette de Lausanne N°270 –Lundi 15 novembre 1954 , p8.